الواقع والمتخيل في شعر ابن خفاجة الاندلسي ت ٥٣٣هـ

م . م . حنين خالد سلمان علي
اللقب العلمي : مدرس مساعد
رئاسة جامعة الانبار ـ قسم الشؤون الادارية والمالية
الشهادة: ماجستير
التخصص العام :اللغة العربية . الأدب
التخصص الدقيق: الأدب الاندلسي
hanenkalied@uoanbar.edu.iq

م. د. مصطفى اسماعيل خليفة محمد
اللقب العلمي : مدرس جامعي
رئاسة جامعة الأنبار – قسم الإعمار والمشاريع
الشهادة : دكتوراه
التخصص العام : اللغة العربية – الأدب
التخصص الدقيق: الأدب الأندلسي
mustafa.ismael@uoanbar.edu.iq

الكلمات المفتاحية: الخيال، الواقع، الشعر الاندلسي، الطبيعة، الممدوح، السياسة.

كيفية اقتباس البحث

علي ، حنين خالد سلمان ، مصطفى اسماعيل خليفة محمد ، الواقع والمتخيل في شعر ابن خفاجة الاندلسي ت ٥٣٣هـ،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، شباط ٢٠٢٦، المجلد:١٦ ،العدد:٢ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Reality and Imagination in the Poetry of Ibn Khafajah al-Andalusi (d.533 AH)

M. M. Haneen Khaled Salman Ali
Scientific title: Assistant teacher
Presidency of Anbar University - Department of Administrative and Financial Affairs
Certificate: Master's degree
General specialty: Arabic language - literature
Specific specialty: Andalusian literature
hanenkalied@uoanbar.edu.iq.com

M.D. Mustafa Ismail Khalifa
Scientific title: University teacher
Anbar University Presidency - Department of Construction and Projects.
Certificate: Ph.D
General specialty: Arabic language - literature
Specific specialty: Andalusian literature
mustafa.ismael@uoanbar.edu.iq

Keywords : imagination, reality, Andalusian poetry, nature, the praised, politics.

How To Cite This Article
Ali, Haneen Khaled Salman, Mustafa Ismail Khalifa, Reality and Imagination in the Poetry of Ibn Khafajah al-Andalusi (d.533 AH), Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, February 2026,Volume:16,Issue 2.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract:

This study combines the most prominent features of reality and imagination in Andalusian poetry in general, and the poetry of Ibn Khafajah in particular. His poetry became a symbol of philosophy, along with his invocations to nature, mountains, night, and the moon, embodying the feelings of the person being praised. His imagination was vast and far-reaching, reflecting on the hidden depths of the soul and soaring into the mysteries of the universe.

Especially since Ibn Khafajah rose from the sensory and direct depiction of nature using an analytical and objective approach that focuses on imaginative poetic issues, resulting from the poet's environment. The study demonstrated, in the theoretical aspect, first: imagination and reality in language and terminology, and second: the

impact of the environment on the poet's culture. As for the practical aspect, it shed light on
Two axes: The first axis dealt with reality and politics and their impact on the formation of the poetic text, which included satire, political and social criticism, the poet and the praised one. As for the second axis, it dealt with the sources of imagination in Ibn Khafajah, which included nature, wine, and philosophy.

الملخص:

تضافرت هذه الدراسة أبرز معالم الواقع والمتخيل في الشعر الاندلسي عامة، وشعر ابن خفاجة بوجهٍ خاص، الذي جعل شعرهُ رمز من رموز الفلسفة، مع مناجاته للطبيعة والجبل والليل والقمر، إذ جسد فيها مشاعر الممدوح، فكان خياله واسع على مدى بعيد، فتأمل في خفايا النفس، وحلق في اسرار الكون.

ولاسيما أنَّ ابن خفاجة ارتقى من التصوير الحسي والمباشر للطبيعة باستخدام منهج تحليلي وموضوعي يركز على قضايا شعرية خيالية، ناتج من بيئة الشاعر. وقد بينت الدراسة في الجانب النظري ، اولا: الخيال والواقع لغة واصطلاحا، وثانيا: اثر البيئة في ثقافة الشاعر، اما في الجانب التطبيقي فقد سلطت الضوء على محورين تناول المحور الاول الواقع والسياسة واثرها في تكوين النص الشعري الذي اشتمل على الهجاء والنقد السياسي والاجتماعي والشاعر والممدوح، اما المحور الثاني: فقد تناول مصادر التخييل عند ابن خفاجة الذي اشتمل على الطبيعة، الخمرة، الفلسفة.

التمهيد:.

١. الخيال والواقع لغة واصطلاحًا

الخيال لغة: هو الشخص والطيف، وخيل اليه انه كذا على مالم يسم فاعله من التخيل والوهم، وتخيل له انه كذا او تخايل اي تشبه يقال: تخيله فتخيل له كما يقال تصور له (الرازي، ٢٠٠٦، ١٤٧. ١٤٨).

اصطلاحا: هو القدرة الابداعية الفطرية لا عانه الشاعر بتوليد المعاني الجديدة التي يمتلكها الانسان لتصوير اشياء أو احداث او مشاهد ليست موجودة في الواقع(نشأة، ١٩٧٠م، ٢٨).

ويعرف (عبدالرحمن شكري) الخيال :هو كل ما يتخيله الشاعر في وصف جوانب الحياة وشرح عواطف النفس وحالاتها والفكر والموضوعات الشعرية وتباينها والبواعث الشعرية وهذا كله يحتاج الى خيال واسع(عبدالمحسن، د.ت، ٣٨٤). فالصورة الشعرية قائمة على تجربه شعرية (تستعين بملكة الخيال بوصفها وسيلة فنيه لازمه لنقل التجربة الشعرية وكشف عوالمها)(اللامي،

٨٨٢،٢٠٠٣)؛ وبذلك يمكن للشاعر عبر الخيال تكوين صورة ذهنية للأشياء التي غابت عن تناول الحسن(عصفور، ١٩٩٢م،١٣).

اما الواقع: هو ما يدل على واقع الحاصل، والواقعي هو المنسوب الى الواقع ويرادفه الوجودي، والحقيقي، والفعلي، ويقابله الخيالي، والوهمي(جميل صليبا، ٢٠٠٨، ٥٥٢). اي ان الخيال يستلم من واقع الحياة اليومية أجزاءه الاولية حتى تتم عملية اعادة بناء تلك الاجزاء بصورة مختلفة وبحلة جديدة مغايرة في ضمن اطار مختلف تماما عما هو موجود في الخارج، وكلما كانت الاشياء المتخيلة ابعد عن الواقع فإنها تكون اقوى من تلك التي يتم ادراكها بالنظر بصورة مباشرة(احمد امين، ١٩٦٧م، ٥٥).

واذا تتبعنا الشعر الاندلسي منذ نشأته في الاندلس، نجد انه قد تطور تبعاً لتطور الواقع المحيط، اذ إنه اوجد فنوناً شعرية جديدة ظهرت نتيجة المتطلبات العصور وهي دلالات للواقع، ومن هذه الدلات الميل الى شيء من المتمعن ووصف الطبيعة، والحنين الى الاوطان، لان الشاعر اسير الواقع يتميز بطابع التكيف مع البيئة وعواملها، وهذا ما شاهدنا في شعر ابن خفاجة عندما وصفها بأحسن الصفات(بهجت، د.ت، ٢٩٠- ٢٩٥). فالخيال والواقع هما اللذان يمكنان المبدع من اخراج المعاني الذهنية المحتجبة والشاعر الهائجة والانفعالات الشعرية(الطائي، ٢٠٢٤،٣١).

٢. أثر البيئة في ثقافة الشاعر:

ومن البديهي أن تكون البيئة الاندلسية موضوعاً شعرياً خاصاً في الادب الاندلسي؛ لأنها كانت سبباً في إلهام الشعراء الاندلسيين، ومصدراً رئيساً من مصادر إبداعهم، إذ حركت مشاعرهم وعواطفهم، فهاموا بها حباً بحكم أن الطبيعة من اقوى روافد الفكر واجملها على الإطلاق حتى لا يكاد اي منهم ان يتجاهلها أو يختها من شعره؛ لأنها مصدرُ لإلهامه، ودافع للقول والابداع فيه(روابحي، ٢٠٢١، ٥٣). فقد كان لهذا الجمال البيئي الاثر البالغ والملاذ الخصب لقريحة الفرد الاندلسي بما شاهده من طبيعة ساحرة وجبال خضراء وسهول رائعة وتغريد طيورها على افنان اشجارها يزيدها رونقاً وبهاء. والمظاهر الفنية التي تبعث الانبهار والدهشة في النفوس، وقد انعكس ذلك في شعر ابن خفاجة حيث كانت البيئة الطبيعية التي يعيش فيها تمثل مصدراً رئيسياً لإلهامه. فالشواطئ والجبال والمروج كانت تجد مكاناً واسعاً في قصائده، حيث كان يصف المناظر الطبيعية بألوانها المتنوعة وتفاصيلها الجميلة. مثل الزهور والاشجار والانهار. ونجدُ له أبياتاً شعرية شخص فيها بيئة الاندلس اذ فضل الاندلس على جنة الخلد واهلها، يقول(ابن خفاجة، ١٩٦٠م، ٣٦٤).

مـــاءٌ وظـــلٌ وأنهـــارٌ وأشجَـــــارُ يَـــا أهـــــلَ أنـْــــــدلُسٍ للهِ دَرُّكُـــمُ
وهـــذِهِ كُنْـــتُ لَـــوْ خُيّـــرتُ أختـــارُ مـــا جنَّـــةُ الخُلـــدِ إلَّا فِـــي ديـــــارِكُمُ
فلـــيسَ تُـــدخَلُ بَعْـــدَ الجنَّـــةِ النَّـــارُ لا تتَّقُـــوا بَعْـــدَهاْ أنْ تـــدخُلُوا سَـــقراً

إنَّ التصوير البديعي الذي أطلقه ابن خفاجة في مجملِ قصائدهِ إن دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدل على دور البيئة في بناء شخصيه الشاعر وهيمنتها على قاموسه اللغوي وتصويرة الفني، فالتحول والانتقال من حياة البداوة المشرقية بخشونة عيشها و قساوتها الى حياة الترف و نعومتها.

هكذا تبين لنا مدى تعلق ابن خفاجة بيئته وحبه للطبيعة على اختلاف ظروفه و أحواله. فكان له حضور في معظم إبداعاته الفنية حتى انتشر معجمها في تلك الدواوين الشعرية (وتسربت الفاظها وتعابيرها والوانها في كل الفنون الشعرية الاخرى من غزل و خمر و مدح و رثاء بحيث لا نجد غرض شعرياً الا وفيه تعبير او تشبيه او صورة مسقاة من معين الطبيعة او مستخلصة من معدتها او متأثرة بمظاهرها)(السعيد، ١٩٧٩، ١٢٤).

لذلك تفوق ابن خفاجة في وصف الطبيعة على نظيره الاخر المشرقي، تأثر بها تأثراً واضحاً في وصفه ، فأصبح خبيراً بيها، وبث في عناصرها الحركة و الحياة واكثر من تشخيصها، وتعلقه الشديد بها وصدق العاطفة من اسباب الحانها على حواسه و خياله . الامر الذي حد به الى توظيف عناصرها في صور و موضوعات مختلفة بكل ما فيها من جمال ، إذ يقول (شوقي ضيف)(لعل بلداً عربياً لم يكثر شعراؤه من تشخيص عناصر الطبيعة على نحو ما اكثر شعراء الاندلس)(شوقي ضيف، د.ت، ١٥٨).

المحور الاول

الواقع والسياسة وأثرهما في تكوين النص الشعري.

أولا: الهجاء والنقد السياسي والاجتماعي

شهدت الأندلس في حقبةٍ من تاريخها اضطراباتٍ سياسيةً واجتماعيةً عارمة، انعكست آثارها العميقة على مختلف مناحي الحياة، ولم يكن الأدب بمنأى عنها، بل كان مرآةً صادقةً لذلك الواقع المتأزم. وفي هذا السياق، نرى قصائد شاعرنا حافلةً بالشجن، نابضاً بالألم، مجسّداً معاناته الذاتية المجتمعية على حدٍ سواء. إذ يتكئ في تجربته الشعرية على تصويرٍ فنيٍّ مكثف، ينقل من خلالها خلجات نفسه المكلومة، وينسج من أحزانه رؤى تعبيرية تترجم واقعه المضطرب، لتغدو أشبه بصرخات مفجوعة بذلك الواقع الذي سلب سعادته ورزقه وقوته. وأن صوت النقد لدى شاعرنا اعمق واوضح منه عند غيره؛ ذلك لما يحمله من صدق داخلي ووعي حادٍ بالتناقضات

التي تحيط به. ومن الملاحظ أن هذا الاتجاه سار ببطء في القرن الرابع الهجري، ثم اخذ يتوسع بشكلٍ أكبر في القرن الخامس الهجري. وقد رأى احد الباحثين إن من دواعي هذا الاتساع حاله الحسد والبغض الموجود في هذا العصر ومظاهر الفساد السياسي والاجتماعي(الركابي،١٩٦٦م، ١١٥)، كما ادت الى اتلاف جزء كبير من تراثه. ونقد هذه الظواهر نابع من((تلك الهزمات والنكبات عاملُ على إذكاء جذوة مشاعر الشعراء للتنبيه إلى خطورة الاتجاه المنحرف الذي سلكه الحكام، وتابعهم عليه أبناء المجتمع، فالتجوا الطريق ووطؤوا أكنافه))(بهجت،١٩٨٠م، ٢٥٧)، لم يكن صوت النقد في شعر ابن خفاجة مجرد سرد للأحداث أو اعتراض على سياسات معنية بل كان يمتاز بالقدرة على تحليل الاوضاع الاجتماعية والسياسية، مما جعل من شعره إداه قويه في النقد.

ففي هذا الصدد يقول الدكتور(احسان عباس) ان هذا النقد(لم يكن خافتا وإنما كان قوياً لا سيما في اثناه حلول الازمات وكذلك لم ينسق الادب .....،إنما ظلت الاندلس هي الغاية حتى نهاية المطاف)(عباس،١٩٦٢م، ١٤٥).

وقد ذكر بعض الدارسين أن بعض المؤرخين ترقعوا عن القول في هذا الغرض؛ لأنه عد من الصفات المعينة الشائعة، فرارا ان السكوت عنه أوجب، .....(غومس،١٩٥٢م،٦١).

وكما فعل الحمدي صاحب كتاب(جذوه المقتبس) عندما تعرض للهجاء أحد الشعراء فقال((وللحصبي شاعر من اهل شذونه، كان سريع البديهة والجواب، قبيح الهجاء في الدولة العامرية .....وعندي أهاجي قبيحة كرهت ان اوردها عنه))(الحمدي،١٩٩٧م، ٤٠٩)

كذلك تناول ابن خفاجة في شعره الفساد والظلم الذي كان منتشراً في زمانه. كما سلط الضوء على الحاكم والمحكوم. مسلطاً الضوء على معاناه الشعب تحت وطاه السياسات الظالمة. اذن ابن خفاجة استخدم الشعر كأداة للتعبير عن القضايا المعاصرة، حيث تمكن من تحويل الشعر الى صوت للحق والعدل في مواجهه الظلم والفساد. ويمكن صدد ذلك عبر سياق النص الشعري، كما جاء في قصيدته عندما عبر عن الاعمال الغير شرعية لبعض الفقهاء. فيقول(ابن خفاجة،١٩٦٠م،٣٦٦):

فيها صُدُورَ المراتبِ ومَجالِسِ دَرَسُوا العُلُومَ لِيَمْلِكُوا بِجِدالِهِمْ

في أخذِ مالِ مساجِدٍ وكنائِسِ وتَزَهَّدُوا حتَّى اصابُوا فُرْصَةً

هذان البيتان الشعريان يبرزان مفارقة حادة ومريرة، ويمثلان نقداً اجتماعياً لاذعاً يتموضع في إطار المتخيل الشعري الذي يكشف عن التناقض بين الظاهر والباطن، وبين السلوك المعلن والمقصد الخفي لذلك يستخدم الشاعر ألفاظاً قوية مثل " ليملكوا "، " المراتب "، " فِرِيَة " لإبراز

التناقض بين القيمة والواقع لبعض الفقهاء الذين اتخذوا الدين قناعاً لهم، فكان هدفهم لتحقيق مصالحهم الشخصية ليبين انهم درسوا العلوم لا من اجلها، بل لتحصيل المراتب والمكاسب المادية.

ومن الملاحظ على هذين البيتين(إنَّ رجال الدين كانوا قد انحرفوا حقيقة، واتخذوا من الدين سبيلا الى مناصب الدنيا، ووسيله الى ابتزاز الاموال) (شلبي، ١٩٧٣م،١٦٠).

ومن قوله ايضاً(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،٣٦٩):

لَكانَ لَنَا فِي كُـــلّ صَالِـــحَةٍ نَهْجُ لَعمـرِي لَـوْ أوضَـعْتَ فـي مـنْهَج التُّقَـى

وهـلْ يستقيـــــمُ الظلُّ والعُودُ مُعْوَجُّ فَمَـا يَسـتقِيمُ الامـــــرُ والمـــلكُ جَـائرٌ

صور الشاعر بنفس تأمليّ بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن، ويقيم مقابلة مأساوية بين المثال الأخلاقي المأمول والواقع الفاسد المعاش، بأسلوب شعري بليغ مشحون بالدلالة والإيقاع. إذ يبدأ الشاعر بالقَسم " لعمري" وهو من أساليب التوكيد التي تُضفي على القول صدقًا وانفعالا داخليًا. ثم يفترض شرطًا: لو أوضعت في منهج التقي، أي لو سارت خطوات الحياة وفق مسار التقوى والورع، لما انفصلنا عن درب الصالحين، ولصار كل عمل صالح لنا طريقًا ونهجًا. ولكن ضياع هذا المنهج بسبب فساد الملوك فينتقدهم انتقادا مبطنا لأنهم يدعون إلى الصلاح ؛ لكنهم في الحقيقة انهم يبتعدون عن طريق الحق.

كذلك تناول ابن خفاجة في نقده الاجتماعي مواضيع مثل التفاوت الطبقي وتجاهل حقوق الفقراء والمحتاجين، كما عبر بشكل لاذع نفاق بعض النخب الاجتماعية والسياسية .ومن ذلك قوله(ابن خفاجة، ١٩٦٠م ،٧٧):

دَعْ عَنْـكَ مِـنْ لـومِ قـومٍ لَسْـتَ تخبُـرُهُمْ إلَّا تَكشَّـفَ سِـتْرُ الغَيْـــبِ عَـنْ عَيْـبِ

عُـوجٌ علـى الـدَّهرِ هُـــوجٌ غَيـرَ أنَّهُـمُ سُـودٌ مـن الجْهـلِ بيضـانٌ مـن الشَّـيبِ

البيتان يمثلان موقفا نقدياً صارماً صوب النفاق الاجتماعي، والانفصال بين المظهر والجوهر، باستخدام لغة جزلة راسما صوره متناقضة ترسخ الفكرة في ذهن القارئ للتفكير عن القيم الحقيقية ،اذ يظهر القوم مظهر الحكمة(الشيب) لكنهم في الحقيقة غارقون في الجهل والظلام ، فالشاعر يشير الى ان القيم الحقيقية لا تأتي من المظاهر، بل من الجوهر الداخلي، فكان صوت النقد لدى هذا الشاعر ردة فعل اتجاه ما شاهده منهم عبر توظيف بعض الدلالات والالفاظ التي تشين من مقاماتهم.

ومن قوله ايضاً(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،٣٦٨):

ألا قُـــل للمريـــــضِ القلـــبِ مَهـــلاً ... فـــإنَّ السَّـــيفَ قـــدْ ضَـــمِنَ الشَّـــفاءَ

ولـــمْ أرَ كالنّـــــفاقِ شكـــــاةَ غـــرٍّ ... ولا كَـــــــدَمِ الـــــوَريدِ لـــــــهُ دَواءَ

وقـــدْ دَحَّـــى النَّجِيـــعُ هنـــاك أرضـــاً ... وقـــدْ سَـــمَكَ العَـــــجَاجُ بِـــهِ سَـــمَاءَ

وَديـــسَ بـــهِ انحطاطـــاً بَطـــنُ وادٍ ... قَـــدَ اعشـــبَ شَـــعْرَ لِحيـــتهِ ضَـــرَاءَ

موقف الشاعر في هذه الابيات يعبر عن فكرة قوية ان القلب المريض بالنفاق يمكن علاجه بالسيف، كما يوحي بان النفاق مرض خطير يحتاج الى علاج قوي و جذري. وقد صرح الشاعر ابن عبد البر في كتابه (بهجت المجالس) اذ ذكر في رسالة النقدية (اذا رغب الملك عن العدل رغبة الرعية عن الطاعة لإصلاح للخاصة مع فساد العامة، ولا نظام الدهماء مع دولة الغوغاء)(القرطبي،١٩٨١م، ٧٦)، يستمر الشاعر بوصف النفاق بانه مرض غريب لا يوجد له علاج كادم يسري في الوريد، مما يعكس مدى تعمق و انتشار النفس البشرية و صعوبة التخلص منه، كما يشير الشاعر الى ان الدماء سالت قد سالت على الارض، وان الغبار قد ملأ السماء مما يعكس صورة الفوض و الدمار التي يتسبب بها النفاق اما في البيت الاخير يوضح الشاعر ان النقاق ادى الى تدنيس وادٍ، مما ادى الى نمو الاعشاب بشكل ضار و غير طبيعي، كما اشار الى تأثيراته السلبية على البيئة و المجتمع.

اذاً الشاعر يوضح خطورة النفاق و تأثيره السلبي على المجتمع و الافراد، معبراً صورة شعرية قوية تجذب المتلقي.

ثانياً: الشاعر والممدوح

ابن خفاجة لم يكن شاعرا مداحا متكسبا شعره. اذا لم يتعرض ملوك الطوائف بوقته على انه نشا في ايامهم ونظر الى تهافتهم في الادب و ازدحامهم وهذا ما سمح له ان يحتفظ بحريته، فلم يضطر الى ملازمة رجال السلطة ولم يعرف حياة البلاط وذلك حتى وقت دخول المرابطين الى الاندلس ، إذ انبرى ابن خفاجة لمدح بعض المرابطين (دخموش،٢٠٠٥، ١٠٥)، ولم يركز ابن خفاجة في مدحهِ على تعداد صفات الممدوح و انجازاته بشكل مباشر، بل كان يميل الى التركيز على صفات الحميدة و الاخلاق النبيلة التي يتحلى بها الممدوح كان يختار الفاظاً دقيقة و مؤثرة للتعبير عن هذه الصفات، مما يجعل المدح اكثر تأثيراً و قناعاً. كما كان بارعاً في استخدام عناصر الطبيعة كرموز للإشارة إلى صفات الممدوح. وكان يصف شاعة الممدوح و قوته من خلال تشبيه الاسد، وكرم و جوده من خلال تشبيه بالنهر المتدفق. ويمكن القول ان مدح ابن خفاجة كان يتميز بالعمق و التأثير بل كان يحرص على الابتعاد عن التملق و المبالغة، مما جعل مدحه أكثر مصداقية و قبولاً، ومن قوله(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،١٠٢):

أَمِ الشَـمسُ حُلَّـت بِـرَأسِ الحَمَـل ... أَلا هَـل أَطَـلَّ الأَميـرُ الأَجَـلُّ

تَـرَدّى القَضـيبُ بِهـا وَاِشتَـمَل ... فَمـا شِئـتَ مِـن زَهـرَةٍ نَضـرَةٍ

بِمَسـرى النَسيـمِ اِلتِـواءُ الجِـذَلْ ... وَهَـزَّت مَعاطِفَـهُ وَالتَـوى

الشاعر في هذه الابيات يمزج بين الطبيعة والمدح مزجاً ابداعياً متخيلاً، ففي البيت الاول يشبّه الشاعر الامير بالشمس التي اشرقت في برج الحمل، وهي اشارة الى بداية فصل الربيع، اذ يكون الضوء مشرقاً و الجو لطيفاً، وهذا يعكس مكانه الامير تأثيره الايجابي على الناس، وفي البيت الثاني يسمر الشاعر في رسم صورة زاهية للأمير، مشبّهاً اياه بالزهور المتفتحة، مما يدل على النضارة و الجمال و البهاء. اما في البيت الثالث و الاخير يستعمل الشاعر صورة فنية رائعة، اذا يحدث عن حركة الامير و رشاقته و كأنها انعكاس حركة النسيم، فيشبه التواء بانحناءات الرياح الرقية. ليقرب للمتلقي صورة تبدو حية واقعه للمشهد

ومن قول الشاعر أيضا(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،٩١):

بِمِثلِ عُلاكَ مِن مَلِكٍ حَسيبِ ... عَدَلتُ إِلى المَديحِ عَنِ النَسيبِ

الشاعر عاد يعكس ثنائية المدح والنسيب في الشعر العربي التقليدي، بمعنى انه يبدأ بالغزل ثم ينتقل إلى مدح الممدوح، لكن في هذا البيت صرّح بأنه عدل عن النسيب إلى المدح بسبب رفعة وعظمة هذا الممدوح. ومن قولة أيضاً(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،١١٧):

ومَـا كَـانَ أعطَـرَ تِلـكَ الصَّـبا ... وأنـدَى معاطِـفَ تِلـكَ الرُّبـى

وأطيـبَ ذاكَ الجَنـى روضـةً ... ومصَّـةَ ذاكَ اللَّـمَى مشْـربا

فحـرَّكْ مـن ساكـنِ كَـامنٍ ... تعـاطِى حديـثٍ يحـلُّ الحُبَـى

هذه الأبيات تتسم بجمالية تصويرية وإيقاع موسيقي عذب، إذ يستعيد الشاعر الماضي بأسلوب حالم يزاوج بين الحواس والمشاعر، ما يمنح النص بُعداً وجدانياً عميقاً، فيستحضر جمال الطبيعة وإعجابه بجمال تلك الأيام، إذ كانت العطور والندى والمشرب العذب سمةً مميزةً لها، وأخراً يبين أثر هذه الذكريات التي توقظ بداخله مشاعر كانت ساكنة، وكأنها تملك قوة سحرية تبعث الحياة في روحه.

ومن قوله ايضا يمدح سيف الملك، يقول(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،٢٣٧):

تَرى يوسُفاً في ثَوبِهِ حُسنَ صورَةٍ ... وَتَسمَـعُ داوُداً بِـهِ مُتَـرَنِّما

استخدم الشاعر اسلوباً مباشراً وواضحا للتعبير عن جمال الممدوح، ففي الشطر الاول: استطاع ان يحدث توافقاً رائعاً بين الخلقية المتمثلة بجمال الممدوح مشبهاً إياه بيوسف(علية السلام). وفي الشطر الثاني يشبه الممدوح بصوت داود(علية السلام) الذي كان معروفاً في الترنم

والترتيل بالآيات القرآنية والادعية(كندوح، ٢٠١٢م ،١٧٠). وبهذا الاسلوب استطاع الشاعر أن يوصل لنا صورة واضحه للتأكيد على حبه للممدوح وحسن جماله من خلال جمع بين جمال المظهر وحسن الصوت.

المحور الثاني

مصادر التخييل عند ابن خفاجة

أولاً: الطبيعة

يعد موضوع الطبيعة من اهم الموضوعات الابداعية والفنية التي شغف بها الشاعر الاندلسي ابن خفاجة، فهو لم ينظر إليها كشيء خارج عن كيانه بل وصفها عبر عواطفه وأحاسيسه، فشخصها وبث الحياة فيها فجعلها حية نابضه، فلم تعد في نظره مجرد الوان وظواهر، بل وجد فيها متنفسا يخفف النار الموقدة في وسط قلبه، اذ يقول الدكتور(احسان عباس)(ان دور ابن خفاجة لم يقف عند هذا الحد اذ زاد في التشخيص وفي الرابطة العاطفية بينه وبين الطبيعة واعتمد وسائل فنية جديدة متعلقة بملكات خاصة لديه، ولم يكتف بأن يربط الطبيعة بموضوع الحب ومجالس الخمر، بل ربطها بكل موضوع، وجعلها المتكأ الذي يستند اليه القول الشعري عامه: ربطها بموضوع الرثاء أولا، ثم بموضوع الغناء والزهد عامه فبعث فيها المعاني الحزينة وتحدث إليها وتحدثت إلية في صمتها او حركتها بمعاني العبرة)(عباس، ١٩٦٢م،٢٠٤) ومن هنا كانت الطبيعة بعضا من سلوكه الخاص ومزاجه، فهو حين يحاول احتواء صورها ومعالمها في شعره إنما يحاول أن يحتوي أماله ورغباته وحياته بما يعتريها من تحديات وألام(الصكر،١٩٧٩م،٢٣٥). وله ثلاث قصائد مهمة جداً كان قد ناجى فيها الطبيعة مناجاة انسانية فيقول في الاولى((في وصف الجبل، والثانية مشابهة لها في موضوع نفسة، والثالثة في مناجاة القمر، على ان البائية الاولى التي نحن بصددها ابعد هذه القصائد شهرة))(الدقاق، ١٩٧٥م،٢٤٥). ولعل من اهم الامور التي جعلت ابن خفاجة يستطيع ان يبدع في وصف تخيل سحر جمال الطبيعة، ان يخاطب الاماكن والاشجار والانهار والقمر والجبل....الخ فهذه الرموز جاءت(لتدل على كل معاني الصمت لتعطي احساسا بوحدة الشاعر وعزلته ورغبته في الاندماج مع ما يمكن ان يؤنس وحدته ويخفف غربته)(دخموش،٢٠٠٥، ١٣١). وقال الشاعر في وصف الجبل(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،٢١٦):

وَأَرعَنَ طَمّاحِ الذُؤابَةِ باذِخٍ ... يُطاوِلُ أَعنانَ السَماءِ بِغارِبِ

وَقورٍ عَلى ظَهرِ الفَلاةِ كَأَنَّهُ ... طِوالَ اللَيالي مُفكِّرٌ في العَواقِبِ

صور الشاعر في هذه الابيات الجبل الذي يشمخ عاليا وكأنه كائن حي يناجي السماء، فهو لم ينظر اليها كشيء خارج عن الكناية بل شخصه بإنسان شامخ تبث الحياة فيه فيجعلها حيَّة ناطقه، فالجبل يمثل دقَّة النَّظر والتأمل في دلالات معاني النص، ليصل الشاعر الى احاسيسه ومعانيه، بل اخذ طابع اخر جسد الصورة الداخلية للشاعر عبر اضفاء الصفات الانسانية على الجبل التي يلوذ بها اوقات حزنه وفرحه(السعيد،١٩٧٩م ،١٢٠).ومن قوله ايضا(ابن خفاجة، ١٩٦٠م، ١٣٠):

لَقَد أَصَختُ إِلى نَجـــــواكَ مِن قَمَرٍ وَبِتُّ أُدلِـــجُ بَينَ الوَعـــيِ وَالنَـــــظَرِ

لا أَجتَلي مُلَحاً حَتّـــــــى أَعي مُلَحاً عَدلاً مِنَ الحُكمِ بَينَ السَمعِ وَالبَصَرِ

نجد الشاعر في هذه الابيات يخاطب القمر، وكانه يخاطب انسان ، فيقول انني استمعت الى محادثتك ايها القمر، لكنه يلزم الصمت ولا يجيب الشاعر وفضلا عن هذا(كان القمر من ابرز المعالم السماوية التي تطل على الارض فتغمرها بالنور)(الحوراني،٢٠١٧م،٩)، فالشاعر اكد ذلك عبر اسلوب لوحته الفنية التشخصية لمعنى كلمتي(بث، ادلج). ومن قوله ايضاً(ابن خفاجة،١٩٦٠م،٢٩٣):

فَيَا بَانَةَ الوَادِي بِمُنعـــــــرَجِ اللِّوَى أَتُصْغِي عَلَى شَحْطِ النَّـــــوَى فَأَقُولُ

وَيَا نَفَحَاتِ الرِّيحِ مِـــنْ بَطْنِ لعْلَعٍ أَلاَ جَادَ مِـــنْ ذَاكَ النَّسيـــــمِ بَخيـــــلُ

فَيَا خَيْمَ نَجـــدٍ دُون نَجـــدٍ تِهـامةٌ ونَجـــدٌ وَوخـــدٌ لِلسُّـــــرَى وذَميـــلُ

وَيَا رِيـمَ نَجْـدٍ والعَـــــوَادِى كَثِيـــرَةٌ بِحُكْـــــمِ اللَّيـــالِي والوَفَـــاءُ قَلِيـــلُ

خاطب الشاعر بواسطه اداة النداء(يا) المدن الحجازية، وهذا نابع من قلق الشاعر والحالة الشعورية التي يمر بها في صراع ذاتي مع شوقه على ابراز وسيلة للكشف عن انفعالاته وعواطفه الداخلية، وتفجير الطاقة الايحائية في النص فهو يتحسر على مدينته، ويتمنى ان يسمع صدى صوته ليتحدث معها في تلك الوحدة بعد ان اهلكه الشوق والحنين لمدينته، فالشاعر عندما يخاطب بتكرار اداة النداء (يا) الاماكن، يخيل انتباه المتلقي ويثير الدهشة والاعجاب؛ لان الشاعر لا ينادي بهدف الاستماع له، ولا ينادي بشراً، وانما ينادي مدينه (لعلع). فهذا النداء(حرك المعنى داخل النص الشعري التي يحققها الاسلوب تعمل على تحريك انفعال القارئ فتجدد على اساس ذلك اقباله على النص بما يتضمن تقبله،.....على ان يخيل للمتلقي حال صاحبه، وما ينحوه من اغراض ومقاصد كلية)(عبانيه، ٢٠٠٧م،٢٦٤). ومن قوله أيضاً(ابن خفاجة، ١٩٦٠م ، ٢٨١):

وَصَـــقيلَةِ الأَنـــوارِ تَلـــوي عِطفَهـــا ... ريـــــحٌ تَلُـــــفُّ فُروعُهـــــا مِعطـــــارُ
عـاطى بِهـا الصَـهباءَ أَحـوى أَحـوَرٌ ... سَـــــحّابُ أَذيـــــالِ السُـــــرى سَـــــحّارُ
وَالنـــورُ عِقـــدٌ وَالغُصـــونُ سَـــوالِفٌ ... وَالجِـــــذعُ زَنـــــدٌ وَالخَلـــــيجُ سِـــــوارُ
بِحَديقَـــةٍ ظَـــلَّ اللِمـــى ظِـــلّاً بِهـــا ... وَتَطَلَّعَـــــت شَـــــنَباً بِهـــــا الأَنـــــوارُ

في بداية البيت يبثُّ لنا الشاعر صورة فنية عبر مدلولات وصفات يستدل منها الخيال، اذ وصف النوار كأنها امرأة، فجعل منها اجمل الصفات، وهنا تلوي النوار عطفها على الارض لتحضنها بين احضانها كأنها رجل يتنعم بعطف وحنان محبوبته، لأنها تمتاز بعطر خلاب وكأنها زهرة عطرها فواح بين الحدائق.

وفي البيت الثاني يستمر الشاعر بربط سلسله خيالية بين الطبيعة والانسان عامه، والمرأة خاصه بعطفها وحنانها وتبدو ذات العينين السوداوين فتراها تتعاطى الخمر بين ازهار النوار، ترتدي ثوبا طويلا ملامسا للأرض

أما في البيت الثالث يصور غصون كأنها اشخاص حية، اشبه بميزات الانسان، وهذا التشابه يظهر بصوره واضحه عندما يربط بين الطبيعة والمرأة اذ شبه احدهما بالأخرى فقد جعل من النور عقد ثمين كي يزين المرأة عنقها لإبراز جمالها، أما الغصون المتفرعة فهي شعر المرأة المتدلي على اكتافها، فالشار وظف الجذع للزند كمصدر قوة وامان، كما ان التفاف الزهر في الحديقة يبدو كانه سوار حتى يزيد من جمالها، كل هذه العناصر مرتبطة بخاصية المرأة(جولق، د.ت،١٢١). كما نجد الشاعر مزجه بين الطبيعة وبين المرأة، فلو حذفنا كلمة الحديقة لكان البيت يتحدث عن المرأة باللمى والاسنان البيضاء، والانوار والعيون، وكل شيء يربط خيال الشاعر.

وقوله أيضاً(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،٨٢):

وَخَيريَّـةٍ بَـينَ النَسيـــــــمِ وَبَيـــنَها ... حَـــــديثٌ إِذا جَـــنَّ الظَـــلامُ يَطيـــبُ
لَهـا نَفَـسٌ يَسـري مَعـــَ اللَيـلِ عـاطِرٌ ... كَـــأَنَّ لَـــهُ سِـــــرّاً هُنـــــاكَ يَريـــبُ
يَـدِبُّ مَعـــــَ الإِمســاءِ حَتّـى كَأَنَّمـا ... لَـــهُ خَلـــفَ أَســـتارِ الظَـــلامِ حَبيـــبُ
وَيَخفـــى مَـــعَ الإِصـــباحِ حَتّـــى كَأَنَّمـــا ... يَظَـــلُّ عَلَيـــــهِ لِلصَبـــــاحِ رَقيـــبُ

سلط الشاعر انظاره في وصف الطبيعة وقد برع في توظيف الازهار والانهار والحيوانات والشمس والقمر والنجوم، فيصفها وصفا جميلا، بل تعمل على ايقاظ ذهن المتلقي وشحنها بكم

هائل من الخيال الذي يهدف الى استيعاب معنى وصف(زهرة الخيري)، فالشاعر يراها ذات ملمس ناعم، كالعبير الفواح الذي ينشر عطره بكل مكان ويفوح ليلاً.

نلحظ أن ابن خفاجة فتن بمناظر مدينته ولكن اجود شعره في الوصف ما ترصده العيون او تحس به القلوب، فكان شعره اداة لخيال تصوير الطبيعة الخلابة؛ لأنه مصور ماهر، ويبدوا ان حرص الشاعر لخيال الطبيعة كان واضح ليبحث عن شيء يخفف عنه.

ثانيا: الخمرة

جسَّد ابن خفاجة حضور الخمرة في شعره بمهارة فنية لافتة فوهبها مساحة واسعة من مخيلته الشعرية، وجعل منها معادلاً حسّياً وعاطفياً يفيض بالشغف والدهشة، فقد انصاعت له الأبيات طواعية، لتغدو الخمرة عنصراً غنياً بالغزل والوصف، إذ تتجلى كؤوسها وأوانيها في صورة نابضة بالحياة، كما أن الخمرة لم تكن في عصره مجرّد مشروب؛ بل كانت رمزاً لطقوس اللهو ومجالس الطرب، وتعبّر عن المزاج العام لطبقات اجتماعية اتخذت من المتعة أسلوباً للوجود، ومن الشعر وسيلة للاحتفاء بها. ففي عصر الامارة والحجابة ازدهر الشعر الخمري فكانت أوفر حظاً وأشد نشاطا؛ وذلك (نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية الخاصة التي تميزت بها الحياة الاندلسية في تلك الفترة)(هيكل، ١٩٨٥م،٢٧٤)، وقد توفرت لهم كل الامور الأساسية المتعلقة بطقوس تلك المجالس من مكان جميل وغناء ورقص، فضلا عن الخمرة التي تعد اهم هذه المستلزمات وضرورة من ضروراته، فقد تبوأت مجالسهم وتوسعت حلقاتهم، فكانت مادة لسمرهم وانسهم في مجالس الشراب والادب والغناء(عتيق،١٩٧٦م،١١٨). ومن ذلك قوله(ابن خفاجة، ١٩٦٠م، ٦٠):

وَشَعشَعَتِ الخَمرُ أَخلاقَهُ ... فَأَطلَعَها غُرَراً لِلبُدورِ

وَهاتيكَ آدابُهُ لُجَّةٌ ... فَمَن لي زَخَرَت بِالعُبورِ

وَما أَرغَتِ الكَأسُ في كَفِّهِ ... وَلَكِنَّها ضَحِكَت عَن سُرورِ

تتضمن هذه الأبيات معاني عميقة ومؤثرة وتقوم على ثنائيات متضادة تُسهم في توليد سلسلة من المفاجآت والدَّهشات الشعورية؛ كي تخلق صوراً ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارئ ووجدانه(درابسة، ١٩٩٩م، ١٩١)، فالشاعر أراد في هذه المتضادات(غررً للبدور) و(ضحكت عن سرور) أن يعبر عن حالهُ بأن يغريه الزمان بالسرور تارةً، وتارة أخرى يفاجئه الدهر ويغلب أحواله إلى الهم والحزن.

ففي البيت الأول نجد الشاعر يبدأ برصد صوره فنية خاصة بجمال الخمر ومدى تأثيره، فهذا التخيل هو وسيله للوصول إلى عمق الحالة النفسية لدى الشاعر، وأما البيت الثاني نراه

يتحدث عن الحسرات والذكريات الجميلة التي انطوى عليها الم الفراق والحنين فأصبحت لها ابعاد لا يمكن استعادتها. ثم ينتقل الحديث في البيت الثالث(وما ازبدت الكأس في كفه) اي ان الكأس لم تكن ممتلئة ولكنها تشير الى كأس يفيض بالفرح والسرور، فالشاعر يعبر عن هذه اللحظات البسيطة، ويرى ان الفرح موجود حتى في غياب الكميات الكبيرة. والكأس هنا يرمز الى ذكريات ومشاعر مختلفة .ومن هنا استطاع الشاعر ان يخلق طاقة شعرية متلازمه تجعل المتلقي يخيل بشكل غير مباشر عبر الادهاش والمفاجأة. ومن قوله ايضا(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،٢١٠):

أعاطى تحايا الكأس والآس فتيةً تخايلُ سود العُذر بيض السَّوالفِ

وذيلُ رداء الغيمِ يخفقُ والصَّبا تخبُّ وموجُ النَّهرِ ضخمُ الرَّوادفِ

الشاعر في هذه الابيات قد سلك مسلك غير مباشر لكنه حقق فيها لمسه فنية تجعل المتلقي ينجذ الى شعره المخيل، فاذا امعنا النظر في ابداعاته نجد الخمر جسد انسه ايام الصبى وطربه وعشايا لهوه ولعبه بباب الروادف، فالشاعر لا يفصح بصورة مباشرة للخمر وانما يصف مناظر الطبيعة الخلابة ليجعل منها رمزاً للخمر، وهذا يوكد ان (الطبيعة بجمالها وبهجتها وبدائع رياضها وازهارها وجداولها اثراً كبيراً في خيالهم على الشرب واللهو، .....وكلما نجد مقطوعه خمرية خالية اوصاف الطبيعة، فالطبيعة محفز ومحرك لتعاطي السلاف)(السعيد،١٩٧٩م،٢٠٤) وهكذا نجد ضالته في كاس الخمرة فيبدد فيها متاعبه وهمومه في زمن صباه. وكان لهذا الاثر النفسي تأثيرا واضحاً في ميدان شعره الذي ساعه على طبيعة البيئة بما تحمله من سحر وجمال وحافز كبير على تعاطي وصف هذه الخمرة. فكانت متنفساً له عن قلقه وتعويضا عن الاسى وطرق همه وحزنه(السعيد،١٩٧٩م،٢٠١). ومن قوله ايضاً(ابن خفاجة، ١٩٦٠م ، ١٢):

تعلَّقتهُ ريان من خمرِ ريقه له رشفُها دوني ولي دونه الكسرُ

ترقرق ماءً مقلتاى ووجههُ ويذكى على قلبي ووجنتهِ الجمرُ

معناه الشاعر تستمر في غموض التصريح الغير مباشر في وصف الخمرة مما يعني ان الشاعر يكتب في لون واحد ولا سيما في مقدمة القصيدة اذ بدءاً يصف تعلقه بالخمرة، اذ جعله رمز لمعاناته التي طالت، ولكن الشاعر لم يباشر الى هذا الغرض وانما صورها بصورة اخرى وهي وسيله من وسائل الماء الذي يطفا نار قلبه لقتل الهموم. وفي البيت الشعري التالي يصف الشاعر يوم انس وفكاهية، اذ استعمل خياله الواسع مع الالوان في وصف الخمر، اذ يقول(ابن خفاجة، ١٩٦٠م، ٨٣):

وجاء بها حمراء اما زُجاجها فماءٌ وأمَّا ملؤُهُ فَلَهِيبُ

لقد ارتأى الشاعر تصوير حالتهُ الذي الم به من خلال عنصرين اساسيين في البيت الشعري(الماء، والهيب) الذي يعكس الصراع بين الهدوء والعاطفة، حيث يبرز الجانب الهادي(الماء)، والجانب العاطفي القوي (الهيب). اذ شبه الخمر باللون الاحمر فهذا يشير الى الحماسة والشغف مما قد يدل على مشاعر قوية او تجربه تبرز الصرعات النفسية او التوترات الداخلية بين المشاعر المختلفة. ومن قول الشاعر يصف احدب اسود يسقى، اذ يقول(ابن خفاجة، ١٩٦٠م، ٣٧٥):

وخمـــرةٍ تضـــــرم مَـــنْ جمـــرةٍ يصـــلى بهـــا أســـود محـــدودبُ

أدمـــج فـــي اكتـــــافِهِ عنقـــهُ فَفـــار رَاس وانحـــــنى مَنْكِـــبُ

وافتـــر عـــن ضـــوء هـــلال بـــدا مطلعـــهُ مـــن وجهِـــهِ مغـــربُ

واعتلقـــــت فحمـــه أطرافِـــهِ شـــرارة مـــن كاســـهِ تلهـــب

هذه الابيات تصف مشهداً حياً ومذهلاً لشارب الخمر وتأثيرها عليه، بأسلوب تصويري يعتمد على الاستعارات والكنايات. ففي البيت الاول يصف الشاعر الخمر المشتعلة التي تخرج من الجرة، مستخدما فعل (تضرم) للدلالة على الاشتعال واللهب. ثم ينتقل الى تصوير الشارب(الاسود المحدودب)، مشبهاً حالته بمن يصطلي بنارها، اما في البيت الثاني يصف حالة السكر الشديد، حيث يبدو كأن رقبته اندمجت مع كتفيه، وراسه غائر، ومنكبه منحني، حيث يدل على الثقل والاضطراب الذي أصابه تحت تأثير الخمر، اما في البيت الثالث نرى تشبيه رائع لابتسامه السكران. حيث يصور اسنانه كأنها هلال يظهر في الافق، وكأن مغرب الشمس (وجهه). كما اعطى بعداً بصريًا ممتزجاً بالخيال. ثم يختم الشاعر البيت الاخير وصف نهائي لحاله السكر، حيث يشبه أطرافه (المحمرة أو المسودة بسبب التأثير) وكأنها اعتقلت شرارة من كأسه، مما يرمز إلى الحرارة والاضطراب الذي يجتاح جسده بفعل الخمر.

ثالثاً: الفلسفة

لم تتمكن الفلسفة من أن تستقر بثبات في فضاء الأندلس الفكري، إذ ظلّ نشاطها هشّاً ومتقطّعاً ،يتأرجح بين المدّ والجزر عبر الحقب المختلفة، ويُرد ذلك إلى انطلاقتها الأولى لم تحظَ بصدى واسع أو ترحيب عميق، ذلك لان (الفاتحين المسلمين ما بين عرب وبربر لم يكونوا أكثر من محاربين متحمسين لعقيدتهم،.....)(بالنشيا، د.ت، ٣٢٣). لا يشغلهم فكر فلسفي بقدر ما يستهويهم فتح المدن الاندلسية واقامة سلطان الإسلام فيها، حتى جاء القرن الثالث الهجري الذي ظهرت به ملامحها الاولى على يد اول المفكرين محمد بن عبدالله بن مسرة القرطبي(ت: ٣١٩هـ) الذي يُعد اول مؤسسٍ، اذ جمع في مذهب بين بعض مبادئ الصوفية وبين اصول

الاعتزال(البلنسي،١٩٩٥م،١٣٣). ومع بداية عهد الخلافة، شهدت هذه العلوم ازدهاراً وتطوراً ملحوظاً، وذلك بفضل الاستقرار السياسي والتوحيد، الذي عم البلاد في عهد الناصر(القيسي،د.ت،٢٣٩)، لكنها لم تكن بمنأى عن سطوة الفقهاء ورجال الدين، الذي صبوا غضبهم على مؤلفات ابن مسرة، متهمينه بالزندقة ومخالفة مذاهبهم، فسعوا الى احراق كتبه(الفرضي،١٩٥٢م، ٤٦). ولان المحور يدور حول فلسفة ابن خفاجة نجد له علاقة وثيقه بالفلسفة الشعرية، تتجلى فكره فلسفة شعره من خلال استخدامه للمصطلحات الفلسفية والفكرية في قصائده؛ لتعزيز المعنى الشعري وتعميقه وتأملاته في الوجود والحياة والحب، حيث يعتبر ابن خفاجة من اوائل الشعراء الذين تناول الفلسفة كمصدر الهام لا شعاره، بالإضافة الى ذلك، يعتبر ابن خفاجة من الشعراء المتأثرين بالفلسفة الاندلسية وابن باجة وابن رشد وابن طفيل.

ومن الملاحظ أن الشاعر يستهل اشعاره الفلسفية المبنية على الحكمة يضمنها خبراته ونظراته العميقة في الوجود بعد أن علمته التجارب، إذ تناول موضوع الغناء والرحيل من منظور وجداني، مستخدماً صوراً بديعية تعكس التأثير القوي للزمن والموت على الانسان التي يقول فيها(ابن خفاجة،١٩٦٠م،١٦٤):

وَقالَ أَلا كَم كُنتُ مَلجَأَ قاتِلٍ وَمَوطِنَ أَوّاهٍ تَبَتَّلَ تائِبِ

وَكَم مَرَّ بي مِن مُدلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ وَقالَ بِظِلّي مِن مَطِيٍّ وَراكِبِ

وَلاطَمَ مِن نُكبِ الرِياحِ مَعاطِفي وَزاحَمَ مِن خُضرِ البِحارِ غَوارِبي

فَما كانَ إِلّا أَن طَوَتهُم يَدُ الرَدى وَطارَت بِهِم ريحُ النَوى وَالنَوائِبِ

فَما خَفقُ أَيكي غَيرَ رَجفَةِ أَضلُعٍ وَلا نَوحُ وُرقي غَيرَ صَرخَةِ نادِبِ

في هذا النص شعور عميق بالفقد والزوال، إذ يربط الشاعر بين الزمان والمكان والاشخاص الذين عَبروا هذا المأوى، ليوكد فكرة زوال الأشياء وتلاشي الذكريات، مما يعكس رؤية فلسفية عن الغناء والمصير المحتوم. كما يتخذ الشاعر أسلوباً اقرب الى التأمل العاطفي في حركة الحياة والموت، إذ يرى في المكان مرآة لحياة البشر التي تنتهي بالموت والنسيان. كما اعتمد الشاعر على بعض الأساليب البيانية في تصوير المكان إذ جعله" ملجا فاتك" و"موطن أواه" مما يشخصه ككيان حي يستقبل الجميع دون تمييز. قوله "طارت بهم ريح النوى" تصوير بليغ يدل على التشتت والفراق القاسي. وايضاً "ولاطم من ركب الرياح" صورة حركية مدهشة تعكس العصف والتقلبات الحياتية. "وزاحم من خضر البحار جوابى" صورة استعارية تشبه العابرين بمن يخوض بحاراً خضراء المليئة بالمغامرة والمخاطر. ومن قوله ايضا(ابن خفاجة، ١٩٦٠م،٤٨):

وَلَيلٍ إِذا ما قُلتُ قَد بادَ فَانقَضى تَكَشَّفَ عَن وَعدٍ مِنَ الظَنِّ كاذِبِ

سَحَبتُ الدَياجـــــــــي فيـهِ سـودَ ذَوائِـبٍ لِأَعتَنِـــقَ الآمـــــــــالَ بـــيضَ تَرائِـــبِ
فَمَزَّقــتُ جَيــبَ اللَيــلِ عَــن شَــخصِ أَطلَــسٍ تَطَلَّـــعَ وَضّـــــاحَ المَضـــــاحِكِ قاطِـــبِ

في هذه الابيات، يرسم لنا ابن خفاجة مشهداً ساحراً لشروق القمر وسط ظلام الليل، مستخدما صوراً خياليه رائعة. اذ يبدأ بالحديث عن الليل، الذي يظن أنه بدأ بالانقشاع والذهاب، لكنه فجأة يظهر فيه شيء جديد، كأن الليل يكشف عن سرٍّ أو وعد غير متوقع. ثم يرى الليل كأنه سحب متراكمه سوداء تحتضن الأمال التي يشبهها بالبياض الناصع، كما اشاره الى ظهور القمر الذي يبدد ظلام الليل. فالشاعر يشبه القمر بشخص يمزق ستر الليل المظلم فيطل بنوره الساطع، لكن المفارقة انه "قاطب"، اي انه جاد او عابس رغم اشراقه. فهذه الابيات تبرز مهارة ابداع الشاعر في التصوير الحركي، حيث حرك مشهداً طبيعياً ما لوفا(طلوع القمر) الى لوحة فنية نابضه بالحياة، تعطي احساساً بالحركة والتغيير. فلعل صورة الحياه عنده توحي(بالصورة الحقيقية للمعاناة النفسية البائسة، المكللة بالحزن والالم والوحدة فليل الشاعر سوداوي حزين لانهاية له، تتلاشى أمامه جميع أحلامه والامة بطلوع الفجر)(عذاري . غفران،٢٠١٨م، ٥٥٤.٥٣٧). ومن ذلك قوله ايضاً (ابن خفاجة، ١٩٦٠م،٢٠٦):

فهـــا أنـــا والظلمـــات والعـــيش صـــحبة ترامـــى بنـــا إيـــدي النـــوى كـــل مرتمـــى
أراعـــي نجـــــــوم الليـــل حبـــا لبـــدرة ولـــيس كمـــا ظـــن الخـــــــلي منجمـــا
فعفـــــــت غرابـــا، يصـــدع الشـــمل وكـــان علـــى عـــــهد الشـــبيبة أســـحما

بدأ الشاعر بأسلوب استهلالي يوحي بالاعتراف والتقرير، إذ يضع نفسه في علاقة وطيدة مع الظلمات والعيش، مما يوحي بأن الحياة لديه ليست سوى امتداد للوحشة والبعد. ويعزز هذا الشعور باستخدامه لفظ ترامي الذي يوحي بالتشتت والانجراف القسري، وكأن أيادي الفراق تتلاعب به وتلقي بهفي متاهات الضياع بلا استقرار. ثم ينتقل الى صورة شاعرية اخرى، إذ يراقب نجوم الليل لا بدافع التنجيم والاستقراء، بل شوقاً الى بدره، وهنا تتجلى استعارة البدر كرمز للحبيب أو الغائب المنشود. فهو لا ينظر الى النجوم كعالم فلكي يسعى الى قراءة الطالع، بل كعاشق يستنطقها بحثاً عن أثر محبوبه . ويُظهر مفارقة جميلة بين العاشق ونظرة الخلي(الذي لا يدرك المعاناة)، فيكشف بذلك عن الفجوة العاطفية والوجدانية بين من يحترق بالشوق ومن يجهل معناه.

الخاتمة وأهم النتائج :

بعد هذه الدراسة المستفيضة، تبين ان ابن خفاجة لم يكن مجرد شاعر يصف الطبيعة، بل كان مبدعاً ينسج بين الحقيقة والخيال. فقد استطاع ان يدمج الواقع والملموس بجماليات

الطبيعة الاندلسية، مع خيالاته الشخصية وتأملاته الوجدانية، ليضفي على قصائده بعداً جماليًا وإنسانيًا.

١- مثل النقد السياسي والاجتماعي في شعر ابن خفاجة صوتاً احتجاجياً نابعاً من وعيه العميق بفساد الواقع، إذ عبر عن استيائه من الظلم والاستبداد بلغة بالغيه لاذعة، منح فيه الكلمة قدرةً على فضح القبح والدفاع عن كرامة الإنسان الأندلسي.

٢. الطبيعة تعتبر ركيزة أساسية في شعر ابن خفاجة، لكنها لا تظهر كأوصاف بصريه فقط، بل كائن حيّ يتفاعل مع الشاعر وتشاركه انفعالاته الداخلية وأحواله النفسية وربما واجهها كما يواجه الغريب موطنه الأول بعد طول غياب.

٣ـ الخيال الشعري لابن خفاجة ليس منفصلا عن الواقع، بل ينبع منه ويحلق في فضاءات الخيال بأسلوب فني رفيع، إذ يحول الطبيعة إلى مرآة للذات ومسرح للتأمل الوجودي، فهو لا يصفها فقط، بل ينطقها ويمنحها روحاً انسانية.

٤. وظف الشاعر اساليب فنية وصوراً خيالية مما جعل من الاشياء الجامدة كائنات ناطقة ، ومن العناصر الطبيعية رموزاً عاطفية وفلسفية.

٥. مزج الواقع بالخيال منح شعره صبغة انسانية وروحية، هذا التداخل بين الواقع والمحسوس من جهة، والخيال الشعري من جهة أخرى، أتاح له أن يعبّر عن مشاعره في سعي دائم للقبض على المعنى العميق الكامن وراء الصور والمشاهد، مما منح شعره نَفَسًا إنسانيًا يتجاوز حدود الزمان والمكان.

٦ـ تجلت في شعره صور الحزن والانس بالطبيعة، مما يدل على الصلة العاطفية الوثيقة بينة وبين العالم المحيط به.

المصادر و المراجع:.

١.الأخرس الناطق وقفة عند جبل ابن خفاجة، حاتم محمد الصكر، منشورات مجلة الطليعة الادبية، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٧٩م.

٢.الادب الاندلسي في عهد الطواف و المرابطين بين الابداع و سطوة التأثر دراسة تحليلية موازنة، د. مصطفى اسماعيل الطائي، اطروحة دكتوراه، ٢٠٢٤م.

٣.الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، د. احمد هيكل، دار المعارف . القاهرة، د.ط، ١٩٨٥م

٤.الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، د. منجد مصطفى بهجت، دار الكتب للطباعة والنشر العراق،ط١، د. ت.

٥.الادب العربي في الاندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربي، ط٢، ١٩٧٦م

٦.استدعاء القمر في شعر ابن خفاجة الاندلسي . دراسة تحليلية، محمد الحوراني، مجلة التواصل الادبي، المجلد ٠٦، العدد٠٩، ٢٠١٧م .

٧.بهجة المجالس و انس المجالس، ابو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عاصم النمري القرطبي(ت:٤٦٣هـ)، تح/محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، ب٢، ١٩٨١م
٨.البيئة الاندلسية و اثرها في تخصيب الشاعر الاندلسي(دراسة في نماذج شعرية) د. سعاد روابحي، مجلة جامعة الجزائر، م/١، ع/٢، ديسمبر ٢٠٢١م.
٩.تاريخ الادب الاندلسي عهد الطوائف و المرابطين، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٦٢م
١٠.تاريخ الفكر الاندلسي، انخل جنثالث بالنشيا، تج/حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، د.ط، د.ت.
١١.تاريخ علماء الاندلس، ابن الفرضي(ت:٤٠٣هـ)، تح/ عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، د.ط، ١٩٥٢م.
١٢.تجربة الغربة و الحنين في شعر ابن خفاجة الاندلسي، فتحية دخموش، رسالة ماجستير، جامعة منشوري، فستطينه، كلية الآداب و اللغات و آدابها، ٢٠٠٤.٢٠٠٥م.
١٣.التفكير الاسلوبي . رؤية معاصرة في التراث النقدي و البلاغي في ضوء علم الاسلوب الحديث، د. سامي محمد عبانية، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٧م
١٤.التكملة لكتاب الصلة: ابن الابار، محمد بن عبدالله بن ابي بكر البلنسي(ت:٦٥٨هـ)، طبعة العطاء، د.ط، ١٩٥٥م.
١٥.التناص في قصيدة المديح الاندلسي، د. نهى حسين كندوش، اطروحة دكتوراه، جامعة القادسية، ٢٠١٢م
١٦.جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس، محمد بن فتوح بن عبدالله الحميدي، دار الغرب الاسلامي، ط٢، ١٩٩٧م
١٧.دراسات ادبية في شعر الاندلسي، د. سعد اسماعيل شلبي، دار النهضة للطبع و النشر، الفجالة . القاهرة، د. ط، ١٩٧٣م.
١٨.دراسات في الادب الاندلسي، د. فايز القيسي، مركز زايد للتراث والتاريخ، ط١، د.ت.
١٩.الدلالات النفسية في شعر الطبيعة الصامتة لدى ابن خفاجة الاندلسي، خالد عبد الكاظم عذاري، كريم عودة غفران، مجلة ابحاث البصرة للعلوم الانسانية، المجلد٤٣، العدد١، ٢٠١٨م
٢٠.ديوان ابن خفاجة الداني، تح/د السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ط، ١٩٦٠م
٢١.الشعر الاندلسي بحث في تطوره و خصائصه، اميليو غرسيه غومس، عربة عن الاسبانية/ حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية للتوزيع . القاهرة، د.ط، ١٩٥٢م
٢٢.الشعر في عهد المرابطين و الموحدين بالاندلس، د. محمد مجيد السعيد، منشورات وزارة الثقافة و الاعلام، دار الرشيد للنشر، طبع في مطابع الرسالة، بيروت، د.ط، ١٩٧٩م
٢٣.الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٢م.
٢٤.الصورة الفنية في الشعر الاندلسي ابن خفاجة، د. علي اللافي جولق، كلية التربية العجلانية . جامعة الزاوية، د. ت.

٢٥.ظواهر الاسلوبية في كتاب جوهر الكنز لابن الاثير الحلبي، محمود درابسة، مجلة ابحاث اليرموك، جامعة اليرموك، الاردن، المجلد١٧، العدد١، ١٩٩٩م.
٢٦.عبدالرحمن شكري ناقداً و شاعراً، د. عبدالفتاح عبد المحسن، القاهرة، دار فباء للطباعة و النشر، د. ت.
٢٧.فصول في الشعر و نقده، د. شوق ضيف، القاهرة، مطبعة دار المعارف، د.ط، ١٩٧١م
٢٨.في الادب الاندلسي، د. جودة الركابي، دار المعارف . بمصر، مكتبة الدراسات الادبية، كورنيش النيل . القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م
٢٩.في النقد الادبي دراسة و تطبيق، د. كمال نشأة، ط١، مطبعة النعمان في النجف الاشرف،١٩٧٠م.
٣٠.مختار الصحاح، حمد بن ابي بكر الرازي، دار الرضوان، ٢٠٠٦م.
٣١.مستويات الصورة الفنية في شعر ابن خاتمة الانصاري، د. خالد لفتة باقر الامي، مجلة جامعة ام القرى، ط١، ١٤٢٤هـ .
٣٢.المعجم الفلسفي: بالألفاظ العربية و الفرنسية و الانكليزية و اللاتينية، جميل صليا، دار الكتاب اللبناني، المجلد٢، ١٩٨٢م .
٣٣.ملامح الشعر الاندلسي، د. عمر الدقاف، منشورات دار الشروق . بيروت، د. ط، ١٩٧٥م
٣٤.ملامح النقد السياسي و الاجتماعي في الشعر الاندلسي على عهد طوائف، د. منجد مصطفى بهجت، جامعة الموصل . كلية الاداب، ع/١٢، ١٩٨٠م
٣٥.النقد الادبي ، د. احمد امين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٩٦٧م.

Sources:

1. The Mute Speaker: A Pause at Ibn Khafajah's Mountain, Hatem Muhammad al-Sakr, Al-Tali'ah Literary Magazine Publications, Dar al-Jahiz, Baghdad, 1979.
2. Andalusian Literature in the Era of the Tawaf and Almoravids: Between Creativity and the Dominance of Influence: A Comparative Analytical Study, Dr. Mustafa Ismail al-Ta'i, PhD Thesis, 2024.
3. Andalusian Literature from the Conquest to the Fall of the Caliphate, Dr. Ahmed Heikal, Dar Al-Maaref, Cairo, n.d., 1985.
4. Andalusian Literature from the Conquest until the Fall of Granada, Dr. Munjid Mustafa Bahjat, Dar Al-Kutub for Printing and Publishing, Iraq, 1st ed., n.d.
5. Arabic Literature in Andalusia, Abdul Aziz Atiq, Dar Al-Nahda Al-Arabi, 2nd ed., 1976.
6. Invocation of the Moon in the Poetry of Ibn Khafajah al-Andalusi - An Analytical Study, Muhammad al-Hawrani, Literary Communication Magazine, Volume 6, Issue 9, 2017.
7. The Joy of Gatherings and the Conviviality of Gatherings, Abu Omar Yusuf bin Abdullah bin Muhammad bin Asim al-Namri al-Qurtubi (d. 463 AH), edited by Muhammad Mursi al-Khuli, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Vol. 2, 1981.
8. The Andalusian Environment and Its Impact on the Enrichment of the Andalusian Poet (A Study of Poetic Models), Dr. Suad Rawabhi, Journal of the University of Algiers, Vol. 1, No. 2, December 2021.
9. The History of Andalusian Literature: The Taifa and Almoravid Era, Dr. Ihsan Abbas, Dar Al-Thaqafa, Beirut, Lebanon, 1st ed., 1962.
10. The History of Andalusian Thought, Angel Gentilis Valencia, trans. Hussein Mu'nis, Library of Religious Culture, n.d., n.d.

11. The History of Andalusian Scholars, Ibn al-Fardi (d. 403 AH), trans. Izzat al-Attar al-Husayni, Al-Khanji Library, n.d., 1952.
12. The Experience of Alienation and Nostalgia in the Poetry of Ibn Khafaja al-Andalusi, Fatiha Dakhmoush, MA thesis, Mansuri University, Palestine, Faculty of Arts, Languages, and Literature, 2004-2005
13. Stylistic Thinking - A Contemporary Perspective on Critical and Rhetorical Heritage in Light of Modern Stylistics, Dr. Sami Muhammad Abbaniya, Modern Books World, 2007.
14. The Supplement to the Book of Connection: Ibn al-Abbar, Muhammad ibn Abdullah ibn Abi Bakr al-Balansi (d. 658 AH), Al-Ata'a Edition, 1st ed., 1955.
15. Intertextuality in Andalusian Panegyric Poems, Dr. Nuha Hussein Kandoush, PhD Thesis, Al-Qadisiyah University, 2012
16. The Ember of the Quotable in Mentioning the Governors of Andalusia, Muhammad ibn Futouh ibn Abdullah Al-Hamidi, Dar Al-Gharb Al-Islami, 2nd ed., 1997
17. Literary Studies in Andalusian Poetry, Dr. Saad Ismail Shalabi, Dar Al-Nahda for Printing and Publishing, Al-Fagala, Cairo, 1st ed., 1973
18. Studies in Andalusian Literature, Dr. Fayez Al-Qaisi, Zayed Center for Heritage and History, 1st ed., n.d.
19. Psychological Connotations in the Still Life Poetry of Ibn Khafajah Al-Andalusi, Khaled Abdul-Kadhim Adhari, Karim Awda Ghufran, Basra Journal of Humanities Research, Volume 43, Issue 1, 2018
20. Diwan Ibn Khafajah Al-Dani, ed. by Dr. Sayed Mustafa Ghazi, Alexandria Knowledge Establishment, first edition, 1960
21. Andalusian Poetry: A Study of Its Development and Characteristics, Emilio García Gómez, translated from Spanish by Hussein Mu'nis, Al-Nahda Al-Masriya Library for Distribution, Cairo, first edition, 1952
22. Poetry in the Almoravid and Almohad Era in Andalusia, Dr. Muhammad Majeed Al-Saeed, Ministry of Culture and Information Publications, Dar Al-Rashid Publishing House, printed at Al-Risala Press, Beirut, 1st ed., 1979.
23. The Artistic Image in the Arab Critical and Rhetorical Heritage, Dr. Jaber Asfour, Arab Cultural Center, Beirut, 3rd ed., 1992.
24. The Artistic Image in the Andalusian Poetry of Ibn Khafajah, Dr. Ali Al-Lafi Joulaq, Faculty of Education, Ajlaniya - University of Zawiya, 1st ed.
25. Stylistic Phenomena in the Book "The Essence of the Treasure" by Ibn al-Athir al-Halabi, Mahmoud Darabseh, Yarmouk Research Journal, Yarmouk University, Jordan, Volume 17, Issue 1, 1999.
26. Abdul Rahman Shukri, Critic and Poet, Dr. Abdul Fattah Abdul Mohsen, Cairo, Fabaa Printing and Publishing House, n.d.
27. Chapters on Poetry and Its Criticism, Dr. Shawq Dayf, Cairo, Dar al-Maaref Press, n.d., 1971.
28. On Andalusian Literature, Dr. Jouda al-Rikabi, Dar al-Maaref, Egypt, Literary Studies Library, Nile Corniche, Cairo, 2nd ed., 1966.
29. In Literary Criticism: A Study and Application, Dr. Kamal Nashaat, 1st ed., Al-Nu'man Press, Najaf, 1970.
30. Mukhtar Al-Sihah, Hamad bin Abi Bakr Al-Razi, Dar Al-Radwan, 2006.
31. Levels of Artistic Imagery in the Poetry of Ibn Khatima Al-Ansari, Dr. Khaled Lafta Baqir Al-Ami, Umm Al-Qura University Journal, 1st ed., 1424 AH.

32. The Philosophical Dictionary: In Arabic, French, English, and Latin Words, Jamil Saliah, Dar Al-Kitab Al-Lubnani, Volume 2, 1982.
33. Features of Andalusian Poetry, Dr. Omar Al-Daqqaf, Dar Al-Shorouk Publications, Beirut, 1st ed., 1975
34. Features of Political and Social Criticism in Andalusian Poetry During the Taifa Era, Dr. Munjid Mustafa Bahjat, University of Mosul, College of Arts, No. 12, 1980
35. Literary Criticism, Dr. Ahmed Amin, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, 4th ed., 1967m.

مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦/ العدد ٢